هـــــــــردر

بقلم الدكتور على مظهر

هو (يوهان جوتفريد هردر)، ولد فى اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٤٤م بپروسيا الشرقية ، وكان أبوه معلماً فقيراً فى مدرسة ، وكان يكد ويكدح كدحاً متواصلا للحصول على ما يسد حاجته الشديدة . أما الابن فقد تنقل من منزل واعظ إلى منزل من خلفه ، ثم سافر مع طبيب إحدى القيالق إلى (كونجزبرج) ، وقد تعلم على يديه الجراحة، وتم له أخيراً أن أعطاه ذلك الطبيب ما يلزمه لدراسة الطب فى بيترزبورج ـ حاضرة الروسيا السابقة ـ ، وكان الولد حيياً خجولا كبير الاحساس منزوياً عن الناس ؛ ولما بدأ دراسته وحضر أول عملية أجروها أمامه سقط مغشياً عليه ، فترك دراسة الطب ، وعدل عنها إلى دراسة اللاهوت ، وكان يعطى دروساً أثناء دراسته فيما تجمع له من ذلك ، وما كان يمده به عضده الكبير ، كل ذلك جعله يتم دراسته وهو فى غنى عن كل مساعدة من أبويه ؛ وممن حضر دروسهم واستمع إلى محاضراتهم فى مدينة (كونجزبرج) الفيلسوف المعروف (إمانويل كانت) فأثر ، فى تكوينه العقلى أثراً دائماً ، ثم (يوهان جورج هامان) الذى اشتهر بتفوقه فى فهم الأمور الدينية على كل معاصريه ، وعرف بأسلوبه الغامض ذى الألغاز ؛ وجعل هردر يقرأ (شكسبير) و (أوسيان) ويفهم ما كتباه ، كما جعله يميل للشعر الشعبى .

قضى الفترة بين سنة ١٧٦٤ و١٧٦٩ فى مدينة (ريجا) يدرس فى مدرسة البيعة (الكتدرائية) هناك ، ثم صار واعظاً منذ سنة ١٧٦٧ ، ولكنه اعتزل ذلك المنصب ليتصل بمعاهد التربية والتهذيب الشهيرة فى الخارج ، فسافر بحراً من (ريجا) إلى (نانت) ومنها إلى (باريس) ؛ وكانت هذه الرحلة سبباً فى تبدل نظام حياته عما قبل ، فقد عهد إليه ـ وهو فى (باريس)ـ بمرافقة الأمير (فون هولشتين) إلى (إيطاليا) ، وكانت السوداء قد غلبت على نفسه ، فقام بما عهد إليه وسافر عن طريق (هامبورج) ، وهناك تقابل مع (لسنج) ، ثم سافر إلى (كيل) ليقدم إلى الأمير ، وبدأ سياحته معه سنة ١٧٧٠ ، وتنقل فيها بين (هامبورج) و (هانوفر) و (جوتنجن) و (دار مشتادت) ، وفى منزل المستشار الحربى (مرك) تعرف بزوجه فيما

بعد المدعوة (كارولينا فلا كسلاند) ، ثم إنه سافر إلى (شتراسبورج) حيث أقام فيها نصف عام استقال فيه من عمله الذى أصبح لا يطيق القيام به وليداوى عينيه ، ولكنه لم يوفق للشفاء ، وعرف (جيته) الشاب وصادقه ، وكان يدرس الحقوق إذ ذاك بجامعة (شتراسبورج) ، وفى سنة ١٧٧١ دعا (الجراف كونت فيلهلم) هردر ليكون واعظ البلاط فى (بوكبورج) ، وتوسط له (جيته) ليكون رئيساً عاماً لادارة فى (فيمار) سنة ١٧٧٦ ، وبذا كان ثالث الشعراء المشهورين الذين ذهبوا إلى تلك المدينة ، وهناك كان يكثر الخلطة والتردد على (فيلاند) ويكثر من ملازمته، وفى سنة ١٧٨٨ كان فى صحبة الأميرة (الهرتزوجين إماليا) فى رحلتها إلى (إيطاليا)، وصار يتدرج فى وظائف ومراتب عليا حتى أنعم عليه امير (باڤاريا) الأكبر برتبة من مراتب الشرف والنبل ، وتوفى بعد أن لازمه المرض زمناً طويلا فى سنة ١٨٠٣ ، وكان أول عضو من مجمع شعراء (فيمار) الذى اختاره الموت وعجل به .

لم يقتصر (هردر) فى كتابته على مادة واحدة ، بل تعداها إلى أكثر منها، فتراه يكتب مواضيع دينية ، ولاهوتية ، ولغوية ، وفلسفية ، وتاريخية ، وشعرية ، وخاصة بالجمال والانسجام ؛ وكان يشتغل بها كلها بجد واجتهاد .

وقد بدأ حياته الأدبية بالنقد الذى كان يدفعه (لسنج) إليه ، ولما كان فى (ريجا) نشر مؤلفين ، كان يرمى بنشرهما إلى إذاعة آراء جديدة بعد أن يكون قد محا من الأدب ما فيه ليبدأ تطوراً فنياً: فنشر (قطع فى الأدب الألمانى) سنة ١٧٦٧ جعلها كتكملة (لخطابات لسنج الأدبية) ، ثم نشر (الغابات النقدية) سنة ١٧٦٩ ، وكانت إحدى تلك (الغابات) خاصة بـ (لوكون) لسنج ، وكانت الاثنتان التاليتان خاصة بما كتبه (كلوتز) ، وتراه فى (القطع) يطالب الكتاب بأن يجعلوا أسلوبهم واضحاً مفهوماً للشعب والطبقة الوسطى ، وأن لا يكون تعملا وتصنعاً ، وأن لا يكون تكلفاً ، بل يأتى الكاتب بالحديث المفيد ، وأن يكون الشاعر شاعراً بفطرته ، وقال فى ذلك ما معناه : لماذا تقلد الأجانب دائماً ، كما لو كنا إغريقاً أو من الرومان ؟ لندع أدباءنا يصورون ما يرونه من قوام وأشكال من غير أن يعمدوا إلى جزء غريب عنا من الجو يأتوننا به ليصبغوا أقوالهم بصبغة شعرية.

وهو يفرق بين نظم الصنعة وبين الشعر الصادر عن طبيعة شاعر، ويقول : إن اللغة فى زمن حداثتها تكون فى السن الشعرى لها . لأنك تجدها قادرة على أن تؤدى ما يراد منها ، غنية ملأى بالأنغام حافلة بالصور ؛ فإذا ما انتقلت إلى سن الرجولة أصبح الشعر شعر الصنعة والتكلف نائياً عن الطبيعة ؛ وعنده أن (هومير) هو أحسن من قرض الشعر وشاد بذكر الطبيعة ، ولذا فهو يفضله على (فرجيل) لما كان فى شعر هذا من الصنعة ، وبموازنة

نظم الصنعة والتكلف بالشعر الصادر عن الطبيعة يمكن أن تصل لفهم كل شعر فهماً صحيحاً صادقاً، كما يمكن معرفة كل تاريخ للشعر.

وتراه فى (غاباته النقدية) يتكلم ويحدث ، كما فعل فى (قطعه) ، ويتكلم عن (هومير) وحسن فهمه لأشعاره وآثاره ، كما تراه يتكلم عن قصص الأبطال الحماسية ـ الملاحم على رأى البستانى ـ ، ويتكلم عن طرقه الصحيحة ومناهجه الصادقة ، واستنكر تلك الطريقة التى تقضى بالحكم على شعراء القدماء حسب أذواق وعوائد العصر الحديث ، وخص بنضاله ومناقشته الشراح الفرنسيين الحديثين الذين لم يتمكنوا من فهم روح العصر القديم ، وقد تكلم فى تلك (الغابات) على (لوكون) لسنج ، وتوصل إلى نتائج أخرى ، ويظهر أنه كان غير موفق فى نقده هذا ؛ وقد أعجب (هردر) بما فى الأغانى الشعبية (لأوسيان) ، كما أعجب (بهومير) من قبل ، وكذلك أعجب (بشكسبير) ، لأنه وجد أن أشعار هؤلاء صادرة عن فطرة طبيعية ؛ وقد اشترك مع (جيته) فى نشر (أوراق فى الفن الألمانى) سنة ١٧٧٣ ، وهى تشير إلى ذلك المعنى عينه والغرض نفسه ، ثم نشر (هردر) رسالتين الأولى خاصة بـ (أوسيان) وبأغانى الشعوب القديمة ، والثانية خاصة بـ (شكسبير) ، وفى هذه الأوراق يفضل (هردر) أشعار الشعب وشعر الفطرة على نظم التكلف والصنعة ، ويبين فيها ما بأغانى الشعبيين من غناء موسيقى وأثر غير مباشر ، وأوصاف شخصية ، ووضوح وبيان ؛ بينما ترى فى نظم الصنعة الكلاسية أنه عمل سائر على قواعد وأصول ، ولكنه لا يصدر عن فطرة طبيعية ، فترى الانسان ينظم ويصف أشياء لم يفكر فيها ، ويتصنع العشق وليس به من غرام ، ويقلد قوى الروح التى ليست له .

هذا ما كان عن الشعر ؛ أما عن النثر ، فانه يرى فى (الانجيل) نثراً جيداً صحيحاً ، لا سيما فى لغة العهد القديم ، ولـ (هردر) أبحاث فى شعر العبرانيين ، فتراه يشير إلى ذلك فى مؤلفه (أقدم الصكوك والوثائق فى بنى البشر) ، وفى مؤلف ثان أسماه (روح شعر العبرانيين) .

ومن خير ما كتب (هردر) فى فلسفة التاريخ ؛ رسالته المعنونة (آراء فى فلسفة تاريخ الانسانية) ، وفى هذه الرسالة الشعرية الكثيرة الخيال يبين (هردر) التطور الحادث من علاقة الطبيعة بحياة الانسان ويكون مبدأ لفلسفة التاريخ ، ويضم إلى تلك الرسالة (خطاباته لرق الانسانية) وواضح من عنوانها أنه يعمل إلى تربية وتهذيب الانسانية ، ويرى من الآراء أن الانسانية تميل للنشوء والارتقاء ، وهى قابلة للتطور الدائم ، وأن الغرض الأسمى لطبيعة الناس هو الانسانية ، وترى فى قوله هذا موضعاً للنظر .

ومن مؤلفاته فى النقد (التقاليد الشعرية) ، فانه بعد أن أوضح فضل شعر الفطرة على نظم الصنعة بواسطة النقد وحثه على حب أغانى الشعب ، تراه يخرج للناس مجموعة طيبة من

تلك الأغانى الشعبية لأمم شتى وعصور متباعدة ، كثيراً ما أعيد طبعها بعنوان (أصوات الشعوب فى الأغانى) وهو العنوان الذى تخيره لها ناشرها سنة ١٨٠٧ (الهر يوهان فون مولر بتوبنجن) . أما الاسم الذى كان قد تخيره لها (هردر) نفسه ، فهو (أغانى الشعب) ، وهو أول من أوجد هذا الاسم ، وفى هذه المجموعة نقرأ أغانى من بلاد اليونان ، وإيطاليا، وفرنسا ، وانجلترا ، وأسبانيا ، وجرينلند، ولابلاند ، وأيسلند ، وبيرو ، ومدغشقر ، بعضها مترجم عن تلك الشعوب والأمم ، وبعضها مقلد لما نظمته تلك الشعوب من أغان ؛ ومن ذلك ترى قدرة (هردر) العجيبة على أن يقول شعراً فى معناه ومبناه ، وما اشتمل عليه من آراء وأخيلة غريبة عنه مثل ما لتلك البلاد الكثيرة ، وتراه يتعمق فى فهم تلك الأغانى الأجنبية عنه بروحه اللطيفة .

ولما كانت السنة الأخيرة من عمره أخرج للناس آخر مؤلفاته ، نعنى به (السيد) ، وكان عبارة عن مجموعة من القصص الخيالية الاسبانية عن حياة وأعمال بطل من أبطال أسبانيا الوطنيين المسمى (رود ريجو دياز اذفونش كونت بيفار) المتوفى سنة ١٩٠٩ فى أيام الملك (الفونس) السادس ، وكان يعرف أيام حياته بالسيد الكمبيادور ، أو (شيخ المعسكر) ، أو السيد البطل ، كما عرفه بعض الأندلسيين بذلك ، وقد جمع تلك القصص الخيالية وجعل منها ملحمة فى أربعة أجزاء : السيد فى عهد (فرديناند) الكبير ثم فى عهد (شانخو) القوى، ثم فى عهد اذفونش أو (الفونسو) الشجاع، وأخيراً لما كان فى (بلنسية) وفى مماته ؛ وفى هذه الملحمة يظهر الشاعر فيها السيد مثالا لكل فضائل الفرسان ومثالا للشجاعة والتقوى ! ؟ والصراحة وحب الحرية رغم الزمن العصيب الذى ظهر فيه، وهو الزمن الذى ما كان يعرف فيه غير الوحشية، والقسوة، والانتقام ، والتقتيل ، والعنف ؛ وقد نقل جل تلك القصص عن السيد من ترجمة فرنسية نثراً ، ولم تكن عن الأسبانية نفسها الأصيلة .

وكثيراً ما كان يهمل القافية فى قصائده التى نظمها من عنده ، وإن يكن لبابها كله حكمة وموعظة ، ولكنه كان لا ينظمها إلا بكيفية صعبة غير مفصلة ولا واضحة ، ولكن فضله الكبير تراه فى أقاصيصه ، وبذلك أعاد للأدب الألمانى ما كاد يعفو أثره .

ولم يكن (هردر) بالعبقرى الكبير الذى يأتى بشىء من عنده ويغرف من بحره ؛ فلا ترى له من المؤلفات العقلية الخالدة شيئا ما ، ولكنه كان بفطرته شاعر تلك الطبيعة الفطرية التى كانت تجعله يشغل بكل جميل فيغرد بذكره شعراً ، وأن يجعل لذلك اللب والشكل ، وقد فتح الألباب ومهد السبيل لفهم الشعر الصحيح، وكان يعمل ويجد فى مواضيع متعددة، وكانت غاية الغايات لكل الأعمال فى رأيه إنما ترمى إلى تربية وتهذيب الانسانية ، وكان منقوشاً على خاتمه ـ كما رقم على قبره ـ ألفاظ ثلاثة : (النور ، الحب ، الحياة) ، وهى توضح توضيحاً شافياً ما آربه فى الحياة ؟

على مظهر